القيم الأخلاقية للرسول الكريم ﷺ

في ديوان

(عرائس الأفكار في مدائح المختار ﷺ)

لأبي العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي

د. صديق مُحَمَّد صديق عبد الفتاح

دكتوراه في الأدب العربي

الملخص:

مُدِح الرسول صلي الله عليه وسلم بأخلاقياته العالية وعرف بها قبل البعثة وبهذا شكلت القيم الأخلاقية مضمونا رئيسيافي مديح الرسول صلي الله عليه وسلم عند شعراء المديح بصفة عامة ويمكن تقسيم القيم الأخلاقية التي كانت في مديح الرسول الي قسمين رئيسين هما:

القيم الإنسانية العامة التي تشترك فيها القدوات والمثل العليا في تاريخ البشرية، **والقيم الأخلاقية التي اختص بها رسول الله** بكونه بشرا معصوما يوحي إليه، وهذه يتفرد بها عن غيره من البشر ويعرض هذا البحث للقيم الأخلاقية التي اعتمد عليها عليها الشاعر في سياق مدحه النبوي مع بيان علاقة هذه القيم الأخلاقية بنظرية الأخلاق والفضائل ومن القيم التي مدح بها شاعرنا شخص الرسول : الصبر والتحمل العفووالحلم الكرم والندي الرحمة والهدي المهابة والشجاعة ملازمة التبسم كما أن هناك أوصافا أخري خلقية عامة لشخص الرسول فيجمع الشاعر بين أكثر من قيمة أخلاقية في مقطوعة شعرية واحدة وذلك كنعومة اليد والرائحة الذكية والتواضع وبعض خصوصياته كالهداية والشفاعة.

الكلمات المفتاحية:

مديح الرسول نظرية الفضائل القيم الأخلاقية الصبر والتحمل الرحمة والهداية.

Abestract:

The Messenger, may God bless him and grant him peace, was praised for his high morals and was known for them before the mission. Thus, moral values formed a main content in the praise of the Messenger, may God bless him and grant him peace, among praise poets in general. The main values can be divided into:

The general human values that are shared by role models and ideals in the history of humanity, and the moral values that were specific to the Messenger of God because he was an infallible human being inspired by him, and these are unique from other human beings. This research presents the moral values that the poet relied on in the context of his prophetic praise, with an explanation of their relationship. These moral values are based on the theory of morals and virtues. Among the values with which our poet praised the person of the Messenger: patience, endurance, forgiveness, forbearance, generosity, gentleness, mercy and guidance, fearlessness, and courage, always smiling. There are also other general moral descriptions of the person of the Messenger, so the poet combines more than one moral value in one piece of poetry, such as the softness of the hand and the smell. Intelligence, humility, and some of its characteristics, such as guidance and intercession.

Keywords:

Praise, Virtues theory, Moral values, Patience and endurance, Mercy, guidance.

مُدح الرسول ﷺ بأخلاقياته العالية، وعُرف بها حتى قبل بعثته، فنجد أنه في العصر السابق على عصر البعثة في مكة المكرمة يمدح بأهم صفتين عرفهما العرب، حيث صفتا الصدق والأمانة، فهو عند قريش "الصادق الأمين".

وبهذا شكلت القيم الأخلاقية مضمونا رئيسا في مديح الرسول ﷺ عند شعراء المديح بصفة عامة، فـ "إنّ مضمون المدحة النبوية الأساسي، هو مدح رسول الله ﷺ والمدح كما عُرف عند الشعراء العرب، هو الثناء على الرجل وأخلاقه وأفضاله وأفعاله، وكل ما يتصل به، وهذا ما فعله مدّاحو رسول الله ﷺ، إلا أنهم أضافوا إلى المدح العربي قيما أخرى، اقتضتها طبيعة مَن يمدحونه؛ فهو رسول الله ﷺ ، وهو سيد الخلق، وهو وحيد في خصاله وفضائله وشمائله، وهو أكبر مؤثر في الإنسانية، لذا كان لا بد من أن يتفرد عن غيره من البشر في مديحه، وأن يختص بقيم مدحية لا يشاركه فيها سواه"ﷺ(١).

وبهذا يمكن تقسيم القيم الأخلاقية في مديح رسول اللهﷺ إلى قسمين رئيسين،هما:

أ- **القيم الإنسانية العامة** التي يشترك فيها القدوات والمثل العليا في تاريخ البشرية.

ب- **القيم الأخلاقية التي اختص بها رسول الله ﷺ** بكونه بشرا معصوما يوحى إليه، وهذه ينفرد بها عن غيره من البشر.

وهذا الجانب الأخير الذي يرجع إلى اختصاص الرسول بقيم أخلاقية هو جانب غني رحب، ذلك أن "شخصية الرسول ﷺ شخصية رحبة غنية، يحار المادحون من أي جانب يشيدون بها. فبعضهم مدحه مدحا تقليديا مثلما جرت العادة في مدح عِظام الناس، وبعضهم مدحه مدحا خُلقيا، لسمو خلقه ورفعته، وبعضهم أظهر أثره في البشرية، وحرص بعضهم على إظهار معجزاته، وبيان مواطن العظمة

(١) المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، د. محمود سالم محمد، ص٢٠٩.

في سيرته، إلى غير ذلك من إمكانيات المدح التي لا حصر لها، ولذلك اعترف المادحون جميعا بتقصيرهم في مدحه، وبعجزهم عن إيفائه حقه"ﷺ(١).

وإذا كانت العرب عظمت من شأن الأخلاق الكريمة في عصر الجاهلية، فإنّ رسول الله ﷺ قد حصر رسالته في هذه الغاية الأخلاقية؛ فقال فيما أخرجه البخاري: "إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"، وفي رواية أخرى للحديث "لأتمم صالح الأخلاق".

وفيما يلي من صفحات تعرض الدراسة **للقيم الأخلاقية** التي اعتمد عليها الإمام الحلبي في سياق مديحه النبوي مع بيان علاقة هذه القيم الأخلاقية بنظريات الأخلاق والفضائل.

- الصبر والتحمل:

صفة الصبر وقوة التحمل من الصفات الأساسية في رسل الله وأنبيائه – صلوات الله عليهم أجمعين– لأنهم يغيرون واقعا طال تعود الناس عليه؛ فهم أكثر الناس تعرضا للأذى، وقد لقي رسول الله ﷺ في ثنايا دعوته كثيرا من الأذى والعنت، ماديا ومعنويا، جسديا وروحيا على النحو الذي وضحته السيرة النبوية وكتبها؛ لذا كان لا بد من أن تكون سمة الصبر والتحمل سمة أساسية في شخص الرسول الكريم.

وقد وردت هذه القيمة الخلقية في شعر الحلبي، ومن ذلك قوله في القصيدة الأولى من ديوانه عرائس الأفكار:

وحلّ بغار ثور خير ثاو فجاء الغارَ إيناسٌ وسعدُ
به بدر النبوءة حلّ ليلاً بهذا لم يكن للغار عهدُ
فصادفَ سبق إسعادٍ وفضلٍ وأنفس شقوة من ذاك جردُ

(١) المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، د. محمود سالم محمد، ص٢٠٩.

جفـــاه الأقربـــون لفـــرط جهـــل وآوى المصـــطفى طيـــرٌ وصـــلدُ ﷺ[١]

فهذا الجفاء الذي لقيه الرسول ﷺ تطلب منه صبرا وتحملا على الأذى الذي سيلقاه في سبيل دعوته، والدفاع عن مبادئه وقيمه.

ويقول الحلبي في سياق بيان تعبده ﷺ في مكة، وتحمله الأذى بها:

وغيـــرَ الله مـــن صـــنم ورجـــسٍ قلـــى طفـــلا وكـــان لـــذاك ماقـــتْ

فكانـــــت مكـــــةٌ للشـــــرك دارا وأحمـــــد عابـــــد فيهـــــا وقانـــــت

قـــد احتمـــل الأذى مـــنهم دهـــورا ومكّـــن ســـيفه مـــن كـــل شـــامت[٢]

وهذه القيمة الخلقية من القيم التي تندرج في نظرية الفضائل تحت فضيلة العفة، يقول ابن مسكويه "الفضائل التي تحت العفة: الحياء، والدعة، والصبر، والسخاء، والحرية، والقناعة..."(ﷺ٣).

ونلحظ أنّ الشاعر قد يأتي بالقيمة الأخلاقية بشكل عام، كالبيت الأول؛ فهو لم يشر إلى واقعة معينة تجلى فيها الصفح عن الناس، كما أشار إليه في البيت الثاني في إشارة إلى ما حدث في أحد.

– العفو والحلم:

هذه القيمة الأخلاقية مما ورد في شعر الحلبي مادحا الرسول الكريم ﷺ وذلك من خلال عرضه لبعض مواقف السيرة النبوية التي تبلور فيها هذا الخلق الكريم، وذلك حين أخذ رجلٌ سيف الرسول، فلما قدر عليه الرسول عفا عنه، وفي ذلك يقول:

وغـــورثُ جـــاء يخـــدع خيـــر خلـــق فســـلّ الســـيف منـــه وهـــو نـــائم

وقـــال: فمـــن يقيـــك اليـــوم منـــي؟ فقـــــال: الله قيّـــــوم العـــــوالم

فبعـــد مقالـــه يبســـت يـــداه وطـــاح الســـيف ممـــن كـــان ظـــالم

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، لأبي العباس أحمد بن عبد الحي، ص٩٤.

(٢) عرائس الأفكار ، ص١٠٨.

(٣) تهذيب الأخلاق في التربية، لابن مسكويه، ص١٧.

وقد قبض النبيّ السيفَ أيضا وقال له: اصطبر لأجلّ حازم
فقال له: فخذني خير أخذٍ فإنك خير آخذ من يُسالم
عفا عنه رسول الله فورا فأحمدُ خير من يحمي المحارم
وكارمَه بعفو واحتمالٍ ومن كمحمد الهادي يُكارم؟ﷺ(١)

فالشاعر هنا يجسد هذه القيمة الخلقية الماثلة في العفو والصفح عند المقدرة، وعدم الانتصار للنفس، ويوضح الشاعر من خلال الاستفهام في الشطر الأخير من البيت الأخير بأنه لا أحد يلحق بالرسول الكريم في هذه الصفة، وهي ذات الصفة التي أُمر بها الرسول الكريم من الله.

وفي كتاب تهذيب الأخلاق يجعل ابن مسكويه هذه القيمة الخلقية في باب فضائل الشجاعة؛ فيقول:

"الفضائل التي تحت الشجاعة: كبر النفس، النجدة، عظم الهمة... الحلم... وأمّا الحلم فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة؛ فلا تكون شغبة، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة"ﷺ(٢).

ويتضح من هذا الموقف أنّ رسول الله ﷺ لم يحركه الغضب بما عرف عنه من الحلم والعفو، فلم ينتقم لنفسه ممن حاول قتله بالسيف حين كان نائما، وهذه الصفة طبيعة تكون في النفس.

فقد استقر علماء الأخلاق على أن الفضيلة نوعان: "أحدهما: عقلي، والآخر: أخلاقي، فالفضيلة العقلية تكاد تنتج دائما من تعليم إليه يسند أصلها ونموها، ومن هنا يجيء أن بها حاجة إلى التجربة والزمان، أمّا الفضيلة الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادة والشيم..."ﷺ(٣).

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص١١١.
(٢) تهذيب الأخلاق في التربية،لابن مسكويه، دار الكتب العلمية،بيروت،ط١ ١٣٠٥هـ،١٩٨٥م، ص١٨
(٣) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس، ص٢٢٥.

– الكرم والندى:

من القيم الأخلاقية التي اعتمد عليها الحلبي في مدحه لرسول الله ﷺ صفتا الكرم والندى، وفي ذلك يقول:

والراحتـــان لـــه كـــروض ريـــاحن لينـــا وطيبـــا قـــد أدام شـــمولا
أزكـى مـن المسـك الفتيـق شـذاهما أحيـــى القلـــوب وأبـــرأ المعلـــولا
كـــم اغتنـــى ذو فاقـــة بنـــداهما فـــاسه أودع فيهمـــا التنـــويلا
مـــا بـــاب فضـــل الله إلا المصـــطفى وبغيـــر طـــه لـــم يكـــن مـــدخولا[ﷺ](١)

فقد جعل الشاعر باب فضل الله كلّه مغلقا إلا من خلال رسول الله ﷺ كما في البيت الأخير من هذه المقطوعة التي مدح فيها رسول الله بصفة الكرم، وأنه يعطي السائل بغير حساب، أو كما جاء في السيرة حينما أعطى الأعرابي؛ فقال لقومه: جئتكم من عند من يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

والكرم من فضائل السخاء، قال ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق:

"الفضائل التي تحت السخاء: الكرم، الإيثار، النبل،... فأمّا الكرم فهو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر، الكثيرة النفع"(٢).

والكرم كغيره من القيم الأخلاقية لا يظهر إلا في المعاملات الحسية، لا الروحية أو المعنوية، و "الأمر كذلك على الإطلاق في الفضائل، فإنّه بسلوكنا في المعاملات المتنوعة التي تحدث بين الناس يظهر حالنا، بعضنا عدول، وبعضنا ظلمة، وبسلوكنا في الظروف الخطرة واكتسابنا فيها عادات الخوف أو الثبات يظهر بعضنا شجعانا، وبعضنا جبناء، وكذا الحال..."(٣).

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٥٩.
(٢) تهذيب الأخلاق في التربية، لابن مسكويه، ص ١٩.
(٣) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس، نقلها إلى العربية أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتب بالقاهرة: ١٣٤٣هـ– ١٩٢٤م ، ص ٢٢٨.

وقد أكّد فلاسفة الأخلاق المحدثون على هذا البعد العملي في القيم الأخلاقية، ومن ثم تسبق الاعتقادات الدينية القيم الأخلاقية، لأنّ "القوانين الأخلاقية ليست ترفا عقليا، وإنما هي قواعد للعمل، وقد ذهب فلاسفة الأخلاق –وعلى رأسهم أرسطو– إلى أنّ علم الأخلاق من العلوم العملية، ولعل الاهتمام بالمجال العملي في جانب الدين أصرح منه في مجال الفلسفة... ومن ثم كان لوم الكتاب الكريم لمن يقولون ما لا يفعلون، وكان هجوم الصوفية على المتكلمين والعلماء الذين لم ينتفعوا بعلومهم أو يزاولوا معتقداتهم"(١).

– الرحمة والهدى:

سبق القول بأن القيم الأخلاقية في مديح الرسول ﷺ تنقسم إلى قسمين، الأول: ما يشترك فيه مع غيره من عظماء الخلق ومصلحيهم، وما ينفرد به لكونه نبيا مرسلا يوحى إليه، فمن الجانب الأول الكرم والعفو والصبر والتحمل، وفي هذا الجانب يتفوق شخص الرسول الكريم في الدرجة التي يصل إليها من هذه القيم الأخلاقية العامة عن غيره من الناس، ومن الجانب الثاني تلك القيم الأخلاقية التي تتعلق بالوحي أو الرسالة.

وقد كانت هذه القيمة ماثلة منذ القصيدة الأولى في المديح النبوي عند الحلبي، ومن ذلك قوله:

سيد السادات تاج الأنبيا كعبة الأملاك قطب الصلحا
من أتانا بالتهاني والهدى لمغاليق المعاني موضحا
أصلح الله به من خصّه بالهدى، أفدي الحبيب المصلحا
رحمة أهداه ذو العرش لنا وبهذا المصطفى قد صدحا(٢)

(١) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: العقليون والذوقيون، أو النظر والعمل، د. أحمد محمود صبحي، ص٣١.

(٢) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ٩٠.

نلحظ توظيف الآية الكريمة "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" في سياق المعاني الواردة في هذه المقطوعة، كما نلحظ أنّ الشاعر قد جمع بين قيمتين أخلاقيتين من قيم الرسول الكريم ﷺ، حيث جمع بين قيمتي الرحمة والهداية، وهما قيمتان اختص الرسول بالثانية منهما، لكونه رسولا يوحي إليه، وحاز مقدارا من الأولى يفوق مقدار ما ناله البشر من صفة الرحمة، لاشتراك الإنسانية في كثير من جوانبها.

وقد يأتي الوصف ﷺ الهادي) في سياق حديث الشاعر عن المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ ومن ذلك قول الحلبي:

والضبُّ أنبأ عن رسالة أحمد كنز الصلاح ومعدن الإصلاحِ
وانقاد للهادي البعير مقبّلا قدميه يشكو صدمة الأتراحِ ﷺ[1]

والحلبي يشير هنا إلى معجزتين كانتا في أحداث السيرة النبوية المشرفة، الأولى حين سأل رسولُ الله ﷺ الضبّ عن نفسه؛ فأجابه قائلا: أنت رسول الله، والثانية أنه حين شكا البعير إليه كثرة ما يلاقيه من قسوة صاحبه وتجويعه.

ولا شك أن المعجزة الثانية متعلقة بخلق الرحمة العظيم؛ فهذه الرحمة لم تقتصر على الثقلين من الإنس والجن فقط؛ بل تعدتهما إلى سائر المخلوقات من الحيوان وغيره، بدليل أن البعير يشكو آلامه إلى رسول الله ﷺ وغير ذلك مما ورد في السيرة من مظاهر رحمته حتى بالجمادات.

والمدح هنا مفارق لمدح غيره من البشر حيث "من المعهود أنّ هذا المدح النبوي الخالص لا يشبه ذلك المدح الذي كان يسمى بالمدح التكسبي، أو مدح التملق الموجه إلى السلاطين والأمراء والوزراء، وإنما هذا المدح خاص بأفضل الخلق، ألا وهو محمد ﷺ ومن ثم يتسم هذا المدح بالصدق والمحبة والوفاء والإخلاص

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص٩١.

والتضحية من ناحية، والانغماس في التجربة العرفانية والعشق الروحاني اللدني من ناحية أخرى"ﷺ[1]).

وفي خلق الهداية يقول الحلبي:

إمـــام المرســـلين أجـــلُ هـــاد بـــه قـــد لاح توحيـــد ورشـــدُ
أتـــى مـــن حضـــرة الـــرحمن لـــيلا وفـــي مـــرآه نـــور الله يبـــدو
بـــريح كـــالعروس أتـــى إليهـــا مـــن الملكـــوت لمـــا جـــاء يعـــدو[2]

فقد أتى الشاعر في البيت الأول بالوصف عن الهداية، ثم جاء ببعض ما يترتب على هذه الهداية من التوحيد والنور.

وفي موضع آخر يوضح الشاعر أن من لاذ بالمختار الهادي فقد فاز، وأن من تجنب هديه إنما هو هلوع العقل؛ فيقول:

جميـــع الصـــحب بالمختـــار لاذوا إذ مـــا اشـــتد بـــالحرب الهلـــوع
هلـــوع العقـــل لـــم يطعـــم هـــداه وفوق الشمس منـه بدا النصوع[3]

في هذا التقابل سمة أخرى من سمات المديح النبوي عند الحلبي، فهو كثيرا ما يعمد إلى تكوين موضوعات الصورة الفنية من خلال المقابلات بين المعاني، وفي البيتين الأخيرين مقابلة الصحب المؤمنين بالفريق الآخر من غير المؤمنين.

وينقل الحلبي قيمة الرحمة إلى مستوى آخر بعد بيان رحمته بالعالمين من الثقلين وغيرهم، فهو يخصص الرحمة لنفسه بإضافة هذه القيمة الأخلاقية إلى ياء المتكلم المعبرة عن الشاعر، وذلك في سياق حديثه إلى رسول الله ﷺ بأسلوب النداء والخطاب:

يـــا مـــالكي أنـــا ملـــك حبـــك دائمـــا منـــي إرادتـــي لأمـــرك أســـلبُ
يـــا راحمـــي إنـــي فقيـــرك ســـائلٌ منـــك الأمـــاني والمقاصـــدَ أطلـــب

(١) من المديح النبوي إلى الشعر الصوفي، د. جميل حمداوي، ص٨.
(٢) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص٩٤.
(٣) المصدر السابق، ص٩٩.

يـــا منيتـــي هـــا شـــيبتي عفّرتهـــا بثراك، يـا مـن فيـه نفس توهـبﷺ[١]

وهذه المصادر ربما لم تكن عند الحلبي وحده، بل عامة عند شعراء المديح النبوي منذ حسان بن ثابت –رضي الله عنه– إلى الشعر الحديث والمعاصر، وفي هذا المعني يقول الدكتور جميل حمداوي: "ويتضح لنا، بعد قراءة قصائد المديح النبوي ودواوينه الشعرية– وعبر تعاقبه التاريخي والفني، أن المديح النبوي كان يستوحي مادته الإبداعية ورؤيته الإسلامية من القرآن الكريم أولا، فالسنة النبوية الشريفة ثانيا، كما أن هناك مصدرا مهما في نسج قصائد المديح النبوي، يتمثل في كتب التفسير التي فصلت حياة الرسول ﷺ تفصيلا كبيرا، كما يظهر ذلك جليا في تفسير ابن كثير على سبيل المثال، فضلا عن كتب السيرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي كتبت حول سيرة الرسول ﷺ سواء أكانت قديمة أم حديثة..."ﷺ٢).

وهذه الأخلاق كانت متأصلة في طباع الرسول الكريم قبل البعثة النبوية، ذلك أنّ الأخلاق على قسمين "منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب...

ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولا فأول؛ حتى يصير ملكة وخلقا"ﷺ٣).

وتمتد قيمة الرحمة الأخلاقية عند رسول الله ﷺ لتشمل الأيتام والعبيد والموالي، بل يسجل الشاعر أنها كانت رحمة متواضعة أيضا، وقد سجل الحلبي ذلك في شعره فقال يمدح الرسول:

مـــا قـــد علمنـــا مثلـــه متواضـــعا الطفـــلُ يغـــدو بالحبيـــب ويقبـــلُ

وتـــراه فـــي كـــل الأحـــاين باســـما ومـــع اليتـــامى والأرامـــل يأكـــلُ

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٢) من المديح النبوي إلى الشعر الصوفي، د. جميل حمداوي، ص ١٠.

(٣) تهذيب الأخلاق في التربية، لابن مسكويه، ص ٢٥–٢٦.

بشـــهوده المـــولى مضـــى مســـتغرقا أنفاسَـــــه وبغيـــــره لا يشـــــغلﷺ[1]

ويوضح الشاعر أنّ الوجود بأجمعه قد رُحم ببعثة الرسول الكريم، وبهذا تكون الرحمة متصلة بالمخلوقات في بعض القصائد، أو متصلة بالوجود بشكل مجمل، فالرحمة عند الشاعر تكون مفصلة أو عامة، ومن هذه الرحمة العامة، رحمة الوجود، وفيها يقول:

بـــــه خـــــتم الإلـــــهُ الأنبيـــــا إذ كمســـــكٍ للجميـــــع هـــــو الختـــــام
بـــــه رُحـــــم الوجـــــود وتـــــاه فخـــــرا بـــــــه زال الـــــــردى والانتقـــــــام
بـــــه لاح الســـــعود لأهـــــل حـــــق بـــــــه زال الخفـــــــا والاكتتـــــــام
بـــــه حصـــــل القبـــــول لأهـــــل خيـــــر بـــــــه ثبـــــت النجـــــا والاعتصـــــام
بـــــه قُبـــــل الـــــدعاء لكـــــل داع بـــــه نيـــــل المقاصـــــد والمـــــرامﷺ[2]

وفي هذه المقطوعة نجد بعدا جديدا في تفصيل القيم الأخلاقية الواردة لدى الحلبي في مديحه للرسول، فهو يفصل مظاهر هذا الخلق أو آثاره الملموسة في الحياة والروح، ففي هذه المقطوعة نلحظ الآتي:

- جاء بالقيمة الأخلاقية بشكل مجمل، حيث قوله ﷺ به رحم الوجود).
- فصّل آثار هذه الرحمة حيث ﷺزوال الانتقام من حياة الناس، وزال الخفا والاكتتام...).

- الحرص على أمته في الدنيا والآخرة:

من الأخلاق التي احتلت مكانة كبيرة في ديوان عرائس الأفكار، حرصه ﷺ على أمته، وقد يتجلى هذا الملمح في رحمته بهم وتواضعه لهم في الدنيا، وقد يكون من خلال القيمة الأعظم، وهي الشفاعة في الآخرة، والشفاعة قيمة كبرى عند الصوفية عامة، لكنها عند الحلبي تأتي في سياق مدح الرسول من خلال بيان

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١١٦.

(٢) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، مصدر سابق، ص ١٢٠.

حرصه على أمته في يوم القيامة، ولا تكاد تخلو قصيدة من هذه القيمة عند الشاعر، ومن ذلك قوله:

وتـــراه شـــافعا فـــي الشـــفعا والعصـــاة الـــواردين المـــوجلا
ولـــه يومئـــذ بِشْـــرٌ زهـــي لشـــموس وبـــدورٍ أخجـــلا
واهتمـــامٌ بنجـــا أمتـــه كـــي ينـــالوا مـــن كـــريم مـــأملا
يســـجد الهـــادي ســـجودا طـــويلا يحمـــد الـــرحمن حمـــدا أكمـــلا
فيقـــال: ارفـــع فشـــفعناك فـــي أهـــل حشـــر، وارجُ فضـــلي واســـألا
امـــض فـــي ســـبعين ألفـــا وادخلـــوا جنـــة الفـــردوس طابـــت مـــدخلا
لـــم يطـــع رضـــوان إلا المصـــطفى يفتـــتح البـــاب ويهـــدي المنـــزلا[1]

فقوله ﷺواهتمامٌ بنجا أمته كي ينالوا من كريم مأملا) يمثل جوهر هذه القيمة الأخلاقية في هذا الوقت العصيب، فالرسول ﷺ يهتم لأمر أمته، ويحرص عليهم حتى في موقف الحشر، وهو موقف عصيب، وذلك من خلال طول سجوده تحت العرش حتى يأذن الله -سبحانه وتعالى- في الشفاعة له.

ومن ذلك قول الحلبي:

يخـــر تحـــت العـــرش فـــي ســـجدة يطيلهـــا والحمـــد منـــه غريـــب
يقضـــي لـــه الـــرحمن مـــا يرتجـــي فـــي ذلـــك الجمـــع وأهـــل الكثيـــب

وغني عن البيان أن هذا الحرص الماثل في الشفاعة الكبرى هي هبة من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ﷺ، وعليه يمكن القول إن هذا الحرص والخوف على الأمة من رسولها يمثل مثالا آخر على جانب الفضائل التي اختص بها الرسول ﷺ ولم يشاركه فيها أحد من البشر.

ومن جوانب الحرص أن الرسول ﷺ يسلي أمته من هذا الهول في موقف ورود الحوض، وفي ذلك يقول الشاعر:

لـــيس لـــي والله غيـــر المصـــطفى عنـــدما ينصـــب جســـر مقـــتَحم

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٤٣.

ويحـــيط الحـــر بـــالخلق غـــدا وطـــه المجتبـــى ظـــل العلـــم
وعلـــى حـــوض لطـــه موقـــف يتلقّـــى أهـــل حـــب وحُـــرم
ويســـــليهم بقـــــول طيـــــبٍ وانبســـاطٍ مـــع ســـرور المبتســـم[1]

هكذا صور الحلبي حرص رسول الله ﷺ على أمته ورحمته بهم في موقف يوم القيامة، وموقف الحوض، من خلال عرضه للشفاعة في ثنايا كثيرة من مديحه النبوي، حتى لم تكد قصيدة له تخلو من هذا الجانب، والحديث عن الشفاعة تقديم لطلب الشفاعة من قبل الشاعر عند المتصوفة بشكل عام، كما سيلي بيانه عند الحديث عن علاقة المديح النبوي عند الإمام الحلبي ومَنْ سبقه من الشعراء المادحين للجناب النبوي الكريم.

- المهابة والشجاعة:

وردت هذه الصفات الخُلقية في مديح الحلبي، حيث أوضح فيها أنه ﷺ كان مهيبا شجاعا، وهاتان الصفتان تناسبان مقام القيادة والرسالة؛ لتأكيد دعائم الدولة الوليدة في مواجهة عالم بأكمله، لم يكن يريد لهذا الدين الجديد أن يظهر.

ومن ذلك قول الحلبي:

مـــن رآه بديهـــة وهْـــو فـــردٌ منـــه يـــذهب عقلـــه كـــل مـــذهبْ
عنـــد رؤيتـــه العقـــول جميعـــا تختشـــي وتُـــرد عنـــه وتغلـــب
كيـــف يُـــدرك بـــالعقول جمـــالٌ بـــالجلال مـــن الجليـــل محجّـــب
غَـــوْرَث أخذتـــه رعـــدة بطـــشٍ فتقهقـــر عـــن أذاه وأضـــرب
....
وأميـــة مـــات مـــن ســـر طعـــن منـــه عـــن ســـر ذلـــك الطعـــن أعـــرب
أشـــجع النـــاس أوقـــع النـــاس قـــدرا أطيـــب النـــاس عنصـــرا وهْـــو أنســـب

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، مصدر السابق، ص ١٦١.

أطهـــر النـــاس محتـــدا وأصـــولا ومـــن النجبـــاء أحمـــد أنجـــب[١]

في هاتين المقطوعتين المتواليتين نجد أن الحلبي قد جمع بين خُلقين أو صفتين هما من منزلة واحدة، حيث تؤدي إحداهما إلى الأخرى، أو بعبارة أدق: تلزم إحداهما الأخرى، فالمهابة تقتضي الشجاعة، والشجاعة تؤدي إلى المهابة.

وفي المهابة يضرب الشاعر مثلا بما جاء في السيرة النبوية من أن أحدهم أراد ضرب النبي ﷺ فهابه، وارتعد من الرسول الكريم، وتراجع عن نيته، وهو ما عبر عنه الشاعر في البيت الأخير من المقطع الأول، حيث قوله:

غَـــوْرَث أخذتـــه رعـــدة بطـــشٍ فتقهقـــر عـــن أذاه وأضـــرب

ويجعل ابن مسكويه خلق الشجاعة رأس باب من الفضائل التي تنطوي داخلها فضائل مختلفة، فهي قيمة رئيسة، تحتها قيم أخرى فرعية، وفي ذلك يقول: "الفضائل التي تحت الشجاعة، كبر النفس، النجدة، عظم الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، احتمال الكد"(٢).

والشجاعة من صفات الأبطال وغيرهم من الناس الذين هم في موضع قدوة، إلا أن للأنبياء مكانة خاصة، ودرجة رفيعة في هذا الخلق، وذلك من خلال ما منحهم الله من ثبات وعزم وصبر وقوة تحمل، ذلك أنّ "الشجاعة ترجع إلى أحاسيس الخوف والطمأنينة إلا أن علاقتها بهذين الإحساسين ليست واحدة بعينها، فإنها يزداد ظهورها في الأحوال التي هي موضع الخوف، والواقع أن الرجل الذي يعرف في تلك الظروف... ويبقى في وجه الخطر كما ينبغي هو أشجع"(٣).

ويواصل الحلبي الحديث في موطن آخر حول بعض مظاهر هذه المهابة، ويذكر منها أن الناظر له لا يستطيع مواصلة النظر له، ويذهب في تعليل ذلك إلى كون نور رسول الله ﷺ من نور الله، فاكتسى مهابة وبهاء.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه، ص ١٨.

(٣) علم الأخلاق، لأرسطو، ص ٣١٣.

يقول الحلبي:

صـــــلاةُ الله والأمـــــلاك طُـــــرا على خيـــر الـــورى قطـــب الكـــرام
بكـــف هـــواكمُ أبـــدا لجـــامي إلـــيكم قـــادني بكـــم غرامـــي
أنـــا وحيـــاتِكم عبـــدٌ طـــريحٌ علـــى أبـــوابكم وقـــف اختـــدامي
أنـــا الصّـــب المتـــيم فـــي هـــواكم ويحلـــو فيـــه لـــي أبـــدا مقـــامي[1]

نجد في هذه المقدمة للقصيدة التي يمدح فيها الحلبي خلق المهابة عند رسول الله معاني شعرية تتناسب وهذا المقام.

ويتفاوت الشعراء في حسن مناسبة المقام للمطلع، وتناسب المطلع مع المضمون أو الغرض، بل ذهب بعض المعاصرين إلى القول بأن مصير القصيدة في مطلعها؛ فيقول: "يتعلق مصير القصيدة بمطلعها، فبقدر ما يكون المطلع ناجحا فنيا، تكون القصيدة ناجحة، إنَّ البداية تضع نسقا معينا منظما إلى حد ما للتصرف الفني عبر النص والنفس... سلطة المطلع على النص، بحيث يستطيع المطلع أن يوجه القصيدة، بل حتى الحالة النفسية للشاعر، النص والنفس معا"(٢).

و"قد أكثر النقاد العرب القدامى من الشروط التي يجب توافرها في المطلع الحسن، ومنها: أن المطلع أول ما يقع في السمع من القصيدة، والدال على ما بعده، المتنزل من القصيدة منزلة الوجه والغرة... وهذا الاهتمام بمطالع القصائد لم يختص بعصر دون غيره، ومطلع القصائد أكثر أجزاء النص مرونة وحيوية، فهو أقدر على التطويع المرن، ويخضع لذوق العصر ومقاييسه النقدية"(٣).

ومن خُلق الشجاعة أيضا، قولُ الحلبي:

ســـيد العُبَّـــاد طـــه المصـــطفى حـــقّ تقـــوى الله والله اتقـــى
قـــدّم الـــذات بـــذات الله فـــي نصـــر ديـــن الله حتـــى اتســـقا

(١) عرائس الأفكار، ص ١٦٤.
(٢) أسئلة الشعرية، بحث في آلية الإبداع الشعري، عبد الله العشي، ص٣٠.
(٣) بناء القصيدة في شعر الناشئ الأكبر، د. علي إبراهيم أبو زيد، ص ٣٨.

كـــم لـــه فـــي غَـــزَواتٍ قومـــةٌ لـــم يقـــم فيهـــا شـــجاع متقـــي
"لـــم تراعـــوا لـــم تراعـــوا" قـــال ذا لأولـــــي بلدتـــــه إذ ســـــبقا
كـــان للأصـــحاب فـــي يـــوم الـــوغى وقـــد اشـــتد الـــوغى نعـــم الوقـــا[١]

وهو في هذا المقطع يسترجع حدثا من أحداث السيرة، حيث فزِع أهلُ المدينة من صوت قوي، وذهبوا يستطلعون الأمر؛ وفي طريقهم إلى مصدر الصوت، لقيهم رسولُ اللهﷺ، وقد سبقهم إلى الصوت، مطمئنا إياهم بقوله ﷺ لم تراعوا لم تراعوا)، حيث أخذ الشاعر لفظ الرسول ثم ضمّنه في مديحه إياه.

– ملازمة التبسم:

من القيم الأخلاقية التي طبع عليها رسول الله ﷺ وحكتها كتب السنة وسيرته النبوية أنه كان كثير الابتسامة، وهو خلق يجمع حوله القلوب بما يشيعه بين أصحابه من روح الألفة والمودة، وقد كان ذلك الخُلق حاضرا في شعر الحلبي في مديحه لرسول الله، ومن ذلك قوله:

مـــا أجمـــل المصـــطفى مبتســـما عنـــد مجلـــى بِثْـــرِهِ فـــي الملتقـــى
جنـــــةٌ واللهِ ثغـــــرُ المصـــــطفى فَتْحُـــــه يُخـــــرِج نـــــورا مُطبِقـــــا
جنـــــةَ المـــــأوى حكـــــى منفتِحـــــا ووعـــــاءَ الـــــدر أيضـــــا مغلِقـــــا[٢]

فهو يمدح رسول الله ﷺ بكثرة الابتسام، ثم يصور الحلبي في شعره صفة هذه الابتسامة، فالرسول حين يبتسم كأن فمه جنة، وحين يكف عن الابتسام فهو وعاء در.

وهذه الصفة وإن كانت صفة خُلقية فلها بُعد جمالي أيضا، فكثرة الابتسامة تضفي الجمال على الوجه، يقول الحلبي:

وشـكلُ صـورته المخصـوص بـالأزل أحـاط بالحسـن فـي وِردٍ وفـي صـدرِ
فـي وجهـه أشرقت شمس الجمـال لنـا والشـمس تنبـو عـن الإدراك بالبصـر

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٦٧.

فـي وجهـه قمـر بـالأنس مشـتملٌ والأُنـس يحصـل للرائـي مـع القمـر
خـزائنُ الحسـن فـي أجـزاء صـورته لكـن مفاتيحهـا الإمعـان بـالفِكَرِ[1]

نلحظ أنّ الشاعر في هذه المقطوعة قد خص الحديث عن الجمال بتفصيل جمال الوجه، والوجه هو مصدر الابتسامة، فجمع في وصف جمال وجه النبي ﷺبين شروق الشمس، ومطلع القمر، مع الأثر المعنوي، حيث الأُنس والبهاء.

- الوصف الخلقي العام:

فيما سبق كان الحلبي يعرض لبعض الجوانب الخلقية عند رسول الله ﷺ صراحة، وبشكل منفرد، كأن يتحدث عن الكرم وحده، أو الشجاعة، أو التواضع، أو غير ذلك من السجايا الخلقية التي عرض لها في أثناء مديحه النبوي.

وفي هذا الجزء يعرض البحث لنمط مغاير من الأوصاف الخُلقية النبوية عند المصطفى الكريم، حيث يعرض الشاعر لعدة أخلاق في مقطوعة شعرية واحدة، ويمكن القول – تأسيسًا على ما سبق– إن هذا الوصف الخلقي عند الإمام الحلبي يتخذ أحد طريقين:

الأول: أن يعرض لخلق محدد في سياق محدد، وقد سبق عرض ذلك، مما قد يشترك فيه مع غيره من العظماء، وإن كانت درجة الرسول أعلى، وقد تكون هذه الأخلاق سجايا وطباعا، وقد تكون ممارسة.

الثاني: أن يعرض لمجموعة عامة من الأخلاق في سياق واحد، حيث يجمع الشاعر بين أكثر من قيمة أخلاقية في مقطوعة شعرية واحدة، ومن ذلك ما تعرضه الدراسة في الصفحات التالية.

يقول الحلبي:

راحتـــاه كالزبـــد والزهـــر لينـــا بـــل مـــن الزبـــد والأزاهـــر أنعـــم
فـــي المصـــافح أعبقـــت خيـــرَ طيـــب فيظـــــل دهـــــرا يتـــــنعم

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٦٨.

كـــم جـــريح بمســـحه وســـقيم أبرأْتَـــه وكـــان دهـــرا يتـــألم
كـم فقيـر أغنيتـه بالفضـل فيضـا مـن ريـاح الأمطـار أحمـد أكـرم
ســـــيد متواضـــــع لكبيـــــر وصـــــغير، وخـــــادمٍ إذ يُكلّـــــم
ذو وقـــــار وهيبـــــة وجـــــلال مَـــنْ رآه كـــان بالرعـــب يُلجـــم(١)

جمع الشاعر في هذا المقطوعة قيما خلقية عديدة، سبق أن تحدث عنها بشكل منفرد في سياقات أخرى من مديحه النبوي، فقد ابتدأ هذه المقطوعة بالحديث عن الكرم بشكل فيه جمع بين الحقيقة والمجاز، فهو في البيت الأول يصف كف الرسول الكريم خَلْقِيّا، وفي البيت الثاني يتحدث من خلال الكناية عن كرم الرسول ﷺ، حيث قوله:

فـي المصـافح أعبقـت خيـرَ طيـب فيظـــــل دهـــــرا يتـــــنعم

ثم ينتقل من هذا التلميح بالكرم إلى التصريح به في البيت الرابع، حيث يصف بكم الخبرية شدة كرمه وكثرته مع كثرة الفقراء بين يديه، حيث يقول:

كـم فقيـر أغنيتـه بالفضـل فيضـا مـن ريـاح الأمطـار أحمـد أكـرم

ثم ينتقل إلى الحديث عن تواضع الرسول ρ، حيث يصف حاله مع فئات متنوعة كالخدم والعبيد، والكبار والصغار، يقول:

ســـــيد متواضـــــع لكبيـــــر وصـــــغير، وخـــــادمٍ إذ يُكلّـــــم

فهو قد جمع بين صفتين خُلقيتين تحدث عنهما بشكل منفرد في كل مرة، وهاتان الصفتان هما:

١–الهداية.

٢–الشفاعة والحرص على الأمة في الآخرة.

ويمكن القول إن هذين الخلقين يمثلان وجهين لخلق واحد، وهو الحرص على الأمة، فالهداية تمثل حرص النبي على أمته في الدنيا؛ كي يتبعوا الإيمان والنور الذي أرسل به ماثلا في القرآن الكريم، وسنته الثابتة عنه، كما تمثل الشفاعة حرص

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٩١.

النبي على أمته في الآخرة؛ حيث إنه يكون حريصا على نجاتهم من النار في موقف الحشر والحساب.

وقد سبق القول إن هذا الحرص على الأمة في الدارين هو الذي شكل عاملا حاسما في نجاح الدعوة الإسلامية، فعلينا "أن نتذكر أنّ جانبا كبيرا من نجاح الدعوة الإسلامية كان يرجع إلى شخصية المبعوث بتلك الرسالة الجديدة ﷺ الذي اصطفته الإرادة الإلهية لكي يكون آخر من يحمل كلمة السماء إلى الأرض، ذلك أن محمدا ﷺ لم يدع لنفسه أكثر مما وهبه الله: كان عبدا لله يبذل كلّ ما وسعته طاقته البشرية لهداية قومه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتعرض في سبيل ذلك لأذى المعرضين عنه، الكافرين برسالته"(١).

ويتجلى هذا الجهد من قبل رسول الله في الحرص على أمته حتى في حال معاندتهم له، وكفرهم برسالته، على النحو الذي صوره القرآن الكريم، وصورته أحداث السيرة النبوية، وهما المصدران اللذان اعتمد عليهما الشعراء والمادحون للرسول ﷺ.

ومن ذلك قوله:

اشفع اشفع في أمة أهل فضل قد رَحِمْنا جميعهم ورفعنا
وأصرتُ الخمسين خمسا لقوم تبعوك وبادروا ما أمرنا
سُبحات وجه الكريم تجلتْ في محيا الحبيب فازداد حسنا
ريحه كان فوق ريح عروس ما أجلَّ طيب الحبيب وأهْنا
يوم فتحٍ أتى بأعلى كداءٍ يدخل البلد الحرام المهنا
جاء مستسلما لأمر جليل خاضعا متواضعا مطمئنا
قائلا كرما لأختٍ عليٍّ: من أجرت يا أم هاني أجرنا
ثم منَّ على البغاة بعفوٍ وهم الطلقاء فضلا ومنَّا

(١) المدائح النبوية، د. محمود علي مكي، ص٢.

وأتـــى البيـــت قائمـــا فيـــه صـــلّى ركعتـــــين لـــــداخلٍ ذاك سَـــــنّا[١]

ويلحظ في هذه الأبيات أن الشاعر قد مزج بين القيم الخُلقية وبعض السمات النبويـة، فهـو فـي القسم الأول من الأبيات يتحدث عن جانب من رحلة الإسراء والمعراج، مشيرا إلى ما كان من فضل الله -سبحانه وتعالى- على أمة رسوله ﷺ حين خفف عنهم فرض الصلاة من الخمسين إلى الخمس، إكراما لنبيه، حيث يقول:

وأصـــرتُ الخمســـين خمســـا لقـــوم تبعـــوك وبـــادروا مـــا أمرنـــا

وبعد هذا التطواف في الملأ الأعلى يعرض الحلبي لبعض القيم الخلقية التي تحدث عنها سابقا بشكل منفرد، موظفا أحداثا أخرى لتأكيد الخلق النبوي الكريم، فهو يتحدث في القسم الثاني من هذه الأبيات عن قيمتي العفو والصفح من جهة، والتواضع من جهة أخرى.

وعلى الرغم من تنوع هذه الأبيات فقد جاءت موضوعات الصورة فيها متماسكة متلاحمة على المستوى المعنوي تلاحما تاما، فهو يضمن خلق العفو عن أهل مكة يوم فتح مكة، حين قال رسول الله لقومه "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، يضمن هذا الخلق خلقا آخر، وهو خلق التواضع، والمعنى أن الرسول عفا عن أهل مكة في تواضع؛ لأنه كان عفوا مع المقدرة على العقاب، فقد جاءهم الرسول منتصرا بفضل الله، وفي ذلك قول الشاعر:

جـــاء مستســـلما لأمـــر جليـــل خاضـــعا متواضـــعا مطمئنـــا

ثم يعرض لقيمة خُلقية أخرى لم يسبق له أن عرضها في شعره، وهي الالتزام بجوار أصحابه، والجوار من عادات العرب التي تدل على نجدتهم وشهامتهم، فإذا قال أحدهم: هو في جواري، فهو في حمايته، وذلك في قوله:

قـــائلا كرمـــا لأخـــت علـــيٍّ: مـــن أجـــرت يـــا أم هـــاني أجرنـــا

وذلك حين جاءت أم هانئ -أخت علي بن أبي طالب- تشكو عليا إلى رسول الله في أنه يرد جوارها؛ فأكد الرسول على جوارها، قائلا: أجرنا من أجارت أم هانئ.

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص١٩٣، ١٩٤.

وعلى الرغم من تنوع القيم الخلقية التي عرض لها الشاعر في هذه الأبيات فقد جاءت متصلة المضمون من خلال تضمين خلق في ثنايا خلق آخر، فقد جاء الانتقال اللفظي بين القسمين من خلال بيت آخر، هو:

ريحه كان فوق ريح عروس ما أجلَّ طيب الحبيب وأهنا

وهكذا كان الاهتمام باللفظ والمعنى، وغالبا ما ينحو المادحون إلى هذا التكامل ويحرصون عليه، وذلك لعِظم شخصية الممدوح، فهم "يحرصون على الغاية من الأدب، كما يحرصون على إظهاره في صورة خلابة وشكل جميل، يهز أعماق النفس، ويحرك المشاعر والعواطف، فالعناية فيهما بدرجة واحدة، فإن كان كذلك كان المضمون خلاقا ونافعا، ولكنه إن ظهر في شكل رديء وصورة مهملة واهية، فإن كان كذلك فسيفقد أساسا كبيرا وعنصرا جوهريا يهز النفس"(١).

ثم يعاود الحلبي الوصف الخلقي العام في القصيدة؛ فيقول:

أبلغ الوحي طريا للورى مثلما بشّر فوزا ونذر
لتمام الكون وافى رحمة وبدين الله بالسيف جهر
وبذات الله وافى ناهضا حازما في كل ورد وصدر
قائما بالقسط أمّار بما يقتضي النهي وما اللهُ أمر
حقَّ تقوى الله واللهِ اتقى من على حال طه قد قدر؟
كل حسن وجمال جمعتْ ذاتُ طه، ذات نور وخفر(٢)

جانب آخر يمدح الحلبي فيه الرسول الكريم، حيث يستعمل الوصف الخلقي العام بكم الخبرية للدلالة على الكثرة، وفي ذلك يقول:

فكم منه قضى أرَبا عظيما لنا، وأزال عنا من كروب
وكم خاف الردى حرصا علينا ورجّانا برحمات المجيب

(١) الصورة الأدبية، تأريخ ونقد، د. علي صبح، القاهرة، د.ت، ص ١٠٤.
(٢) المرجع السابق، ١٩٩.

وكـــم بشـــرى لنـــا أبـــدى حنانـــا وأنـــذرَ مـــن مقارفـــة الـــذنوب
وكـــم أزهـــى لنـــا وجـــه التهـــاني بوعـــدٍ صـــادق للمســـتجيب
وكـــم قـــد خفّـــف الأثقـــال عنـــا وبالتضـــعيف فزنـــا مـــن قريـــب
وكـــم قـــد أعظـــم الحســـنات منـــا فنلنـــا المكرمـــات بـــلا رقيـــب
وكـــم ألقـــى كمـــالات علينـــا فأنقانـــا الحبيـــب مـــن العيـــوب[1]

وهذا الرابط اللفظي الماثل في تكرار كم الخبرية في صدر كل بيت يمثل سلكا ينظم الأبيات اللاحقة بالسابقة، إضافة إلى الرابط المعنوي في كون الممدوح شخصا واحدا، وهو رسول الله ﷺ.

وهذا ما أكده الدكتور علي صبح حيث يقول: "الصورة الأدبية هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر، أعنى خواطره ومشاعره وعواطفه، المطلقة من عالم المحسوسات، ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى في إطار قوي تام مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين"(٢).

وقد كان هذا الإطار قويا تاما من خلال رابطين، الرابط اللفظي وهو تكرار كم الخبرية في صدر كل بيت، والرابط المعنوي في توحيد شخصية الممدوح، حيث تدور كل هذه القيم الخلقية حول محور الفضائل عن رسول الله.

وقد يجمع الحلبي القيم الخُلقية إلى الصفات المعنوية والجسدية في إطار واحد، ومن ذلك قوله:

وعنـــد البيـــت مـــا أقـــواه عزمـــا وللأصـــنام قـــد أردى القضـــيب
هـــوت منكوســـة بجـــلال طـــه وفـــي تنكيســـها ســـر عجيـــب
عـــن البيـــت الشـــريف أزال رجســـا حبيـــبٌ لـــيس يشـــبهه حبيـــب
وصـــار الـــدين أوضـــح مـــن نهـــار بوعـــد الصـــدق، وانفضـــح المريـــب

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ، ص ٢٠٦.

(٢) الصورة الأدبية، تاريخ ونقد، د. علي صبح، ص ١٤٩.

وطـــال المصـــطفى فـــوق الأعـــادي بنصـــــر الله وانخفـــض الحريـــب
وكـم للمصـطفى فـي الشـرك حـرب بـــذات الله كـــان لـــه الحـــروب
وســـهّل كـــل صـــعب بانتصـــاب فمـا عسـرت علـى الهـادي الصـعوب
أبـــان الحـــق وحيـــا واجتهـــادا ومـــن كمحمـــد فينـــا مصـــيب
براحتـــه الشـــريفة كنـــز طيـــب وملمـس جسـمه روض خضـيب[1]

فقد جمع من الصفات الخُلقية ﷺ قوة العزم، الشجاعة في الحروب، الاجتهاد...) ومن الصفات الجسدية كثرة حديثه في صفة كف رسول الله كما في البيت الأخير من هذه المقطوعات التي اشتملت عليها قصيدة واحدة، حيث قوله:

براحتـــه الشـــريفة كنـــز طيـــب وملمـــس جســـمه روض خضـــيب

كل ذلك في سياق متلاحم، فهو يمزج هذه الأبعاد الخُلقية والخلقية في آن معا، دون إحساس المتلقي بالانفصال، وهذا يعني ضمن ما يعني صدق المديح، وقوة التجربة الشعرية عند الحلبي.

جانب آخر في المديح عند الحلبي، وهو كثرة مزجه القيم الخُلقية مع الأوصاف الخلقية الجسدية مع الحديث عن المعجزات التي أيّد الله بها رسوله ﷺ وقد احتل المدح بالأوصاف الجسدية أو الخُلقية أو الصفات المعنوية اهتماما كبيرا عند الشاعر.

وقد كانت هذه الجوانب وغيرها واضحة في شعر الحلبي , وتعرض الدراسة لبعض نماذج من هذا الجانب؛ باعتباره متعلقا بالوصف الخُلقي العام عند الشاعر من جهة، وكونه يمثل جانبا موضوعيا مهما عنده من جهة أخرى.

يقول الحلبي:

سـبحان مـن جعـل الحبيـب مشـرفا خَلْقـــا وخُلقـــا حـــائزا تكمـــيلا
جعـــل المحيـــا منـــه بـــدرا زاهـــرا والشَـــعر لـــيلا فوقـــه مســـدولا

(١) الصورة الأدبية، تاريخ ونقد، د. علي صبح، ص ٢١٥-٢١٦.

والثغـــرَ فجـــرا أشـــرقت أنـــواره عنـــد ابتســـام بالوقـــار جمـــيلا
والخـــدَّ صـــلتا كـــالجبين وجبهـــةٍ لكـــن تـــراه مـــورّدا وأســـيلا
والطـرفَ أدعـجَ أشـكلا كَحَـلٌ بـه مـن غيـر كُحـلٍ لا يـزال كحـيلا
واللحيـة اشـتملت بـروض ريـاحنٍ لكـن بهـا سـبجٌ يـروق جلـيلا
والحاجبـان سـوابغ مـن غيـر مـا قَـرَن لهـا بلـجٌ حكـى قنـديلا
الثغـر أشـنب ريقـه فيـه الشـفا يشـفي غلـيلا سـره وعلـيلا
والقـدُّ معتـدلٌ سـويٌّ ربعـة طـال القصـيرَ بمشـيه وطـويلا
والراحتـان لـه كـروض ريـاحن لينـا وطيبـا قـد أدام شـمولا(١)

وقد يأتي هذا الوصف الأخلاقي العام في سياق آخر، حيث يكون في سياق الحديث عن المعجزات الحسية التي أيد الله بها رسول الله ﷺ كما كان الوصف سابقا في سياق الوصف الخَلقي الجسدي، ومن ذلك قوله:

أشـجع النـاس أوقـع النـاس قـدرا أطيـب النـاس عنصـرا وهـو أطيـب
أطهـر النـاس محتـدا وأصـولا ومـن النجبـاء أحمـد أنجـب
فـاض مـاءٌ بـين إصـبعيه عيانـا ذاك فـي المعجـزات والله أغـرب
وبراحتيـه الطعـام جهـارا سـبح اللهَ كالحصـى وهـو أوجـب
كفُّـه كـم شـفت جراحـا وداءً إنّ مسـح كـفّ الحبيـب مجـرب
وأتتـه الأشـجار تبغـي امتثـالا وتجـرُّ عروقهـا وهْـي تجـذب
جُلبـت بلجـام قهـر إليـه لسوى أشرف الورى ليس تُجلبُ(٢)

وقد يكون لهذه الطريقة بعد آخر في نظرية الفضائل، فعندما يأتي الوصف الخلقي أو القيم الخلقية في السياق العام للمعجزات، فإنّ ذلك يعطي المتلقي بعدا

(١) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٥٨–١٥٩.
(٢) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٦٤.

مهما، وهو أن أخلاق الرسول الكريم تكون في مستوى أعلى من المستويات البشرية المعلومة عند العظماء.

وقد جاء الوصف الخلقي حول الشجاعة في البيت الأول وطيب المحتد وأصالة النسب، وغير ذلك من الأوصاف، فـ "من أهم موضوعات المدائح النبوية: أوصافه عليه الصلاة والتسليم، بيان معجزاته، شفاعته، توسل الشعراء واستغاثتهم به، ومنزلته بين الأنبياء، وأسماء النبي، والصلاة والتسليم عليه، والحنين إلى المدينة المنورة، والشوق إلى زيارة النبي الكريم"(١).

ومن المعجزات التي احتلت مكانا واسعا في شعر الحلبي شعرُه في معجزة الإسراء والمعراج، ومن ذلك قوله:

استزار الرحمن منه قدوما نحو قاب قوسين وهْو المكرّم
جيء في الليل بالبراق إليه والملائك حوله وهو يُخدم
في العوالم كان يعرض جهرا وهْو كالبدر في المسير المنجّم
وبمسجد بيت قدس تصدّى للإمامة، وهو نعم المقدّم
في الهواء الحبيب رام عروجا باليقين وقد دنا وتقدّم
خاطب الله عند عرش مجيد ورآه كما يليق ويفهم
أوتسلى في المنتهى بنداء الـ ـحق: أقبل يا حبيبي لتُكرم
هذه حضرتي وأنت حبيبي ليس فيها سواك عبد يُكلم
ثم أعطاه ما أراد وخالا ـه بوحي، والوحي إذ ذاك مبهم(٢)

(١) المدائح النبوية عند شعراء العربية الباكستانيين، د. كفايت الله همداني، ص١٢٩.
(٢) عرائس الأفكار في مدائح المختار، للحلبي، ص ١٩٢.

الخاتمة:

وهكذا يمكن القول بأن القيم الخلقية في شعر الحلبي جاءت من خلال ثلاثة طرق، وهي على النحو الآتي:

- أن يخصص الشاعر الشعر في وصف خلق محدد وتفصيله.
- أن يكون الوصف عاما في سياق الوصف الخَلقي.
- أن يكون الوصف عاما في سياق الحديث عن المعجزات.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- عرائس الأفكار في مدائح المختار، تأليف أبي العباس أحمد بن عبد الحي، اعتنى به، د. علي بن المنتصر، دراسة وتقديم د. محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط١: ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

ثانيًا: المراجع:

- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، د. محمود سالم محمد، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١: ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م .
- تهذيب الأخلاق في التربية، لابن مسكويه، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: ١٣٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطو طاليس، نقلها إلى العربية أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتب بالقاهرة: ١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م.
- الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: العقليون والذوقيون، أو النظر والعمل، د. أحمد محمود صبحي، دار المعارف، القاهرة: ط٢: ٢٠٠٦م.
- من المديح النبوي إلى الشعر الصوفي، د. جميل حمداوي، ط١، ٢٠١٦م، ط١: ٢٠١٦م.
- أسئلة الشعرية، بحث في آلية الإبداع الشعري، عبد الله العشي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١: ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- بناء القصيدة في شعر الناشئ الأكبر، د. علي إبراهيم أبو زيد، دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.
- الصورة الأدبية، تأريخ ونقد، د. علي صبح، القاهرة، د.ت.
- المدائح النبوية عند شعراء العربية الباكستانيين، د. كفايت الله همداني، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب بلاهور، عدد: ٢٥، ٢٠١٨م.